الفصل الخامس

توحيد الألوهية

obeikandl.com

توحيد الألوهية

أولاً: تعريفه ومكانته خاصة[1]:

هو إفراد الله عز وجل بجميع أنواع العبادات وإخلاصها له وحده لا شريك له ظاهرًا وباطنًا وهو توحيد الله تعالى بأفعال العباد ويسمى توحيد العبادة، لأن الألوهية والعبودية بمعنى واحد، إذا معنى الإله: المعبود[2]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين[3].

وهذا التوحيد أعظم أنواع التوحيد وأهمها، والمتضمن لها جميعًا، ولا يصير العبد مؤمنًا إلا بتحقيقه، وهو الذي لأجله خلق الله عباده وأنزل كتبه، وبعث أنبياءه ورسله عليهم الصلاة والسلام[4]، قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات:٥٦] وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُواْ اللهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ**﴾ [النحل:٣٦].

وقال تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [البينة: ٥].

- وهذا التوحيد هو معنى قول: لا إله إلا الله والتي معناها: لا معبود بحق إلا الله[5].

- ومما يدل على أهمية توحيد الألوهية أنه هو التوحيد الذي أرسل الله به الرسل من أولهم إلى آخرهم، واتفقت دعوة الرسل من أول رسول بعثه الله إلى خاتمهم محمد ﷺ، اتفقت دعوتهم إلى البدءِ بدعوة أقوامهم إلى إخلاص العبادة لله ونبذ الشرك بكل صوره وأسبابه ووسائله المؤدية إليه، قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ**

(١) المنهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى صـ١٥٠، ١٥١، شرح الطحاوية صـ٤١٦ ـ ٤٢١.
(٢) حماية الرسول حمى التوحيد صـ٢٣٤.
(٣) دعوة التوحيد، خليل الهراس صـ٣٧.
(٤) حماية الرسول حمى التوحيد صـ٢٣٤.
(٥) منهج السلف والمتكلمين في موافقه العقل للنقل (١/ ٢٦١).

﴿أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال تعالى عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩]، وقال عن نبيه ابراهيم عليه السلام إنه قال لقومه: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦]، وقال تعالى عن كليمه موسى عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]، وقال تعالى عن المسيح عليه السلام إنه قال لقومه: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ۞ إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الزخرف: ٦٣، ٦٤].

– وأول ما بدأ به خاتمهم محمد ﷺ دعوته إلى الله عز وجل دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله، ونبذ الشرك بأنواعه ووسائله وأسبابه بالقول والفعل، فحمى ﷺ حمى التوحيد، ودعا إليه، وأنذر الشرك غاية الإنذار، واستمر على هذا المنهج حتى لحق بالرفيق الأعلى ﷺ، واقتدى به أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين وكل من اتبع طريقته واستن بسنته، فطريقته في الدعوة هي: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وفي هذه الآية أمر الله رسوله ﷺ أن يخبر الناس أن هذه سبيله أي: طريقته ومسلكه وسنته وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يدعو بها على بصيرة من ذلك ويقين وبرهان وكل من اتبعه يدعو إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ على بصيرة وبرهان عقلي وشرعي[(١)].

وقد بين رسول الله ﷺ أن توحيد العبادة أساس الإسلام وأنه أول ما يبدأ له في الدعوة إلى الله ويدل على ذلك رسائله ﷺ ومبايعته وجهاده ووصاياه لقواده، وغير ذلك من الأمور، ومن الأمثلة الدالة على هذا:

١ – إرساله ﷺ معاذًا رضي الله عنه إلى اليمن لدعوة قوم من أهل الكتاب إلى توحيد الله عز وجل، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال له: إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٥١٣ ـ ٥١٤).

الله، وفي رواية: إلى أن يوحدوا الله، فإن هم أطاعوك على ذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة[١]، فبين ﷺ أن أول ما يبدأ به في الدعوة إلى الله تعالى شهادة أن لا إله إلا الله وإخلاص العبادة له جل وعلا[٢].

٢- وكذلك أمره ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم خيبر بدعوة اليهود إلى التوحيد أولًا حيث أعطاه ﷺ الراية وقال: انفذ على رسلك، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك حمر النعم[٣]، وفي رواية أخرى: فسار علي رضي الله عنه ثم وقف ولم يلتفت فصرخ: يا رسول الله على ماذا أقاتل الناس؟ فقال ﷺ: قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله[٤].

٣- وكذلك مبايعاته ﷺ تدل على أن أول ما يبدأ به في الدعوة إلى الله إخلاص العبادة لله الذي هو التوحيد، ومن الأمثلة على ذلك، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس: تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا[٥]، وعن أم عطية رضي الله عنها قالت: بايعنا رسول الله ﷺ فقرأ علينا: ﴿**أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا**﴾ [الممتحنة: ١٢][٦].

٤- وكذلك جهاد النبي ﷺ وقتاله إنما كان من أجل دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله عز وجل والبراءة من الشرك وأهله، والدفاع عن راية التوحيد، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله عز وجل[٧].

---

(١) البخاري، ك المغازي رقم ٤٣٤٧.
(٢) منهج السلف والمتكلمين (١/ ٢٦٧).
(٣) البخاري، ك فضائل الصحابة، رقم ٣٧٠١.
(٤) مسلم رقم ٢٤٠٥.
(٥) البخاري رقم ٧٢١٣.
(٦) البخاري رقم ٧٢١٥.
(٧) البخاري رقم ٢٥.

ثانيًا: الطريقة القرآنية في الدعوة لتوحيد الألوهية:

تعددت الأساليب القرآنية في الدعوة إلى توحيد الألوهية:

١- **منها بيان آيات ربوبيته سبحانه** التي يراها الناس ويقرون بها، وأنه سبحانه هو خالقها، ثم يختمها بالدعوة إلى إفراده سبحانه بالعبادة، فكما أنه المتفرد بهذا الخلق، فيجب أن يكون وحده سبحانه المتفرد بالعبادة لا شريك له، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لله أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

وكقوله تعالى: ﴿**قُلِ الْحَمْدُ لله وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ءَآللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ الله بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۞ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلاَلَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ الله بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۞ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ الله قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۞ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ الله تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ الله قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [النمل: ٥٩- ٦٤]، يقول الله تعالى في آخر كل آية «أإله مع الله» أي أإله مع الله فعل هذا؟ وهذا استفهام إنكار، يتضمن نفي ذلك، وهم كانوا مقرين بأنه لم يفعل ذلك غير الله[(١)].

٢- **ومنها شهادة الله سبحانه على توحيد الألوهية**، فقد شهد الله لنفسه بهذا التوحيد، وشهدت له به ملائكته وأنبياؤه ورسله، قال تعالى: ﴿**شَهِدَ الله أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ إِنَّ الدِّينَ عِندَ الله الإِسْلاَمُ**﴾ [آل عمران: ١٨، ١٩].

٣- **ومنها بيان عجز الآلهة التي يدعونها من دون الله تعالى**، وإنها لا تملك لنفسها كما

(١) المنحة الإلهية في تهذيب شرح الطحاوية صـ ٥٥، ٥٦.

لا تملك لغيرها نفعًا ولا ضرًا من دون الله، وجاء ذلك في آيات كثيرة من كتاب الله، فعلى سبيل المثال، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ**﴾ [الحج: ٧٣]، والآيات في هذا كثيرة تبين عجز هذه الألهة التي اتخذوها من دون الله تعالى وأنها لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعًا ولا ضرًّا.

٤- **ومنها بيان عبّاد هذه الآلهة** والتنديد بهم، والتشنيع عليهم ووصفهم بالضلال والغي والعمى، والبعد عن الهدى والرشاد، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاء وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ**﴾ [الأحقاف: ٥، ٦]، وقوله تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ [العنكبوت: ٤١]، وقال تعالى: ﴿**وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا**﴾ [الفرقان: ٣] والآيات في هذا الباب كثيرة.

٥- **ومنها بيان ما يقع يوم القيامة** بين هؤلاء المشركين وآلهتهم من براءة بعضهم من بعض، وتخليهم عن عابديهم وتنكرهم لأتباعهم، في حال هم أحوج ما يكون إلى من يشفع لهم، ويدافع عنهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ۞ فَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ**﴾ [يونس: ٢٨، ٢٩].

٦- **ومنها ما جاء في قصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام** في دعوتهم أممهم إلى توحيد الله وإفراده وحده بالعبادة، وكان ذلك مفتاح دعوة كل نبي ورسول وما جرى بينهم وبين أقوامهم لأجله من خصومة وما دارت بسببه من معارك عظيمة بالبيان والسنان، وما كان من ذلة وهلاك لأعداء الله وأعداء رسله ونصر ومنعة وغلبة للرسل وأتباعهم، وتلك سنة الله في خلقه، وهو الذي يقول بعد ما قص دعوة عدد من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿**وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ**﴾ [هود: ٨٣]، والآيات عن

قصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام مع أممهم كثيرة جدًّا نكتفي بمثال واحد لذلك وهو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۞ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۞ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ۞ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ٩- ١٤].

والحديث عن قصص الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام مع أممهم في دعوتهم يوضح أن توحيد الله وإفراده بالعبادة وحده لا شريك له هو المهمة الأولى للرسل عليهم الصلاة والسلام، ومما تقدم يتبين أهمية توحيد الألوهية المتضمن لأنواع التوحيد جميعًا والمطلوب من الناس كافة[1].

ثالثًا: معنى العبادة وشروط قبولها:

مدار العبادة في اللغة والشرع على التذلل والخضوع والانقياد، والعبادة في اللغة من الذلة، يقال: طريق معبد وبعير معبد أي مذلل، وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف[2].

والعبادة في تعريفها الشامل هي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

(١) حماية الرسول حمى التوحيد صـ ٢٤٩.
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢٦)، تفسير الطبري (١/ ١٦٠).

والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار، واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله وذلك أن العبادة هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خلق الخلق لها كما قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾[الذاريات: ٥٦]، وبها أرسل جميع الرسل[(١)].

والعبادة تتضمن كمال الحب ونهايته وكمال الذل ونهايته، فالمحبوب الذي لا يعظم ولا يذل له لا يكون معبودًا، والمعظم الذي لا يحب لا يكون معبودًا[(٢)].

شروط قبول العبادة في القرآن الكريم:

الشرط الأول: الإخلاص: وهذا الشرط متعلق بالإرادة، والقصد، والنية. والمقصود به إفراد الحق سبحانه وتعالى بالقصد والطاعة[(٣)]، والنية تقع في كلام العلماء بمعنيين، أحدهما: تمييز العبادات بعضها عن بعض، كتمييز صلاة الظهر عن صلاة العصر مثلًا، إلى أن قال: والمعنى الثاني: بمعنى تمييز المقصود بالعمل هل هو لله وحده لا شريك له، أم لله وغيره، وهذه النية التي يتكلم فيها العارفون في كتبهم في كلامهم على الإخلاص وتوابعه[(٤)]، والأدلة على هذا الأصل في القرآن والسنة وعلماء الأمة ومن سار على نهجهم كثيرة، فمن القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۞ أَلَا لله الدِّينُ الْخَالِصُ**﴾ [الزمر: ٢ – ٣]، أي لا يقبل الله من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له[(٥)].

وقوله تعالى: ﴿**قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٩].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩ـ ١٥٠).
(٢) التحفة العراقية صـ ٦٣، مجموع الفتاوى (٢٠/ ٦).
(٣) مدارج السالكين (٢/ ٩١).
(٤) جامع العلوم والحكم لابن رجب صـ ٨.
(٥) تفسير ابن كثير (٣/ ١٥٨).

ومن الأحاديث النبوية قوله ﷺ: **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**[(١)].

وفي حديث أبي هريرة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: **إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه، رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمته فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت ولكنك تعلمت ليقال: عالم وقرأت القرآن ليقال: قارئ فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال: جواد، وقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، حتى ألقي في النار**[(٢)].

الشرط الثاني في قبول العبادة، الموافقة للشرع: وأما الأدلة من القرآن فكثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقوله سبحانه: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣].

وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾ [النساء: ١٢٥].

وقوله ﷺ: «**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله**»[(٣)].

---

(١) البخاري، ك بدء الوحي (١/ ٢).
(٢) مسلم، ك الإمارة (٢/ ١٥١٣).
(٣) رواه مالك في الموطأ بلاغًا، ك القدر، باب النهي عن قول القدر (٢/ ٨٩٨).

وقوله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد**»[١].

وقال ﷺ: «**لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك**»[٢].

وعن مطرف بن عبد الله يقول: سمعت مالك بن أنس إذا ذُكر عنده الزائغون في الدين يقول: قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: سَنَّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر بعده سننًا، الأخذ بها اتباع لكتاب الله عز وجل، واستكمال لطاعة الله عز وجل، وقوة على دين الله تبارك وتعالى، ليس لأحد من الخلق تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر في شيء خلافها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين، ولاه الله تعالى ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا[٣]. ومما روى عن الفضيل ابن عياض أنه تلا قوله تعالى: ﴿**لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾ [الملك: ٢]، فقال: أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إذا كان العمل خالصًا ولم يكن صوابًا، لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص إذا كان لله عز وجل والصواب إذا كان على السنة[٤].

وبعد ذكر شرطي العبادة المقبولة عند الله سبحانه وتعالى يتبين أن دين الإسلام مبني على أصلين: أن نعبد الله وحده لا شريك له، وأن نعبده بما شرعه من الدين، وهو ما أمرت به الرسل[٥].

إن الغاية من خلق الإنسان وكتابة الموت والحياة عليه واضح في قوله تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾ [الملك: ٢]. والأحسن عملًا يتضمن أمرين: كما فسر ذلك الفضيل بن عياض – رحمه الله – عندما قال: أحسنه أي أخلصه وأصوبه[٦].

---

(١) مسلم، ك الأقضية (٢/ ١٣٤٣ ، ١٣٤٤).
(٢) سنن ابن ماجة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين (١ / ١٤).
(٣) الشريعة للآجري صـ٤٨.
(٤) مدارج السالكين (٢ / ٨٩).
(٥) مجموع الفتاوى (١ / ١٨٩).
(٦) معالم التنزيل (٤ / ٢٦٩).

فأخلصه هو «لا إله إلا الله»، وأصوبه هو «محمد رسول الله»، وهو الذي أشارت إليه سورة الفاتحة – أم القرآن الكريم – ﴿**اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ [الفاتحة: ٦ – ٧]. والذين أنعم الله عليهم هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، ومنهم الرسول الكريم ﷺ وصحابته – رضوان الله عليهم – والذين ساروا على هذا «الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ»، أي الصواب الموصل للغاية، وهذا الطريق وسط بين طرفين[(١)].

رابعًا: حقيقة العبادة:

إن دائرة العبادة التي خلق الله لها الإنسان، وجعلها غايته في الحياة ومهمته في الأرض، دائرة رحبة واسعة: أنها تشمل شئون الإنسان كلها، وتستوعب حياته جميعًا، وتستغرق كافة مناشطه، وأعماله[(٢)]، ومن التعريف السابق للعبادة، عندما ذكرنا بأنه اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، لا يمكن أن يخرج أي شيء من نشاطات الإنسان وأعماله سواء أكان ذلك في العبادات المحضة، أو في المعاملات المشروعة، أو في العادات التي طبع الإنسان على فعلها، وإن كان ينبغي لنا الإشارة إلى أن الأصل في العبادات المحضة المنع حتى يرد ما يدل على مشروعيتها، وأن أصل العادات العفو حتى يرد ما يدل على منعها، وذلك مبني على أن تصرفات العباد من الأقوال والأفعال نوعان: عبادات يصلح بها دينه، وعادات يحتاجون إليها في دنياهم، فباستقراء أصول الشريعة نعلم أن العبادات التي أوجبها الله، أو أحبها لا يثبت الأمر بها إلا بالشرع.

وأما العادات: فهي ما اعتاده الناس في دنياهم مما يحتاجون إليه، والأصل فيه عدم الحظر، فلا يحظر منه إلا ما حظره الله سبحانه وتعالى، وذلك لأن الأمر والنهي هنا شرع الله، والعبادة لا بد أن يكون مأمورًا بها[(٣)]، فما لم يثبت أنه مأمور به، كيف يحكم عليه بأنه عبادة؟ وما لم يثبت من العبادات أنه منهي عنه كيف يحكم عليه أنه محظور؟ والعادات

(١) الوسطية في القرآن الكريم صـ٣٨٩.
(٢) العبادة في الإسلام للقرضاوي صـ٥٣.
(٣) الوسطية في القرآن الكريم صـ٣٨٠.

الأصل فيها العفو ولا يحظر منها إلا ما حرم الله[1]. وهذا التقسيم في الحظر والإباحة لا يخرج شيئًا من أفعال الإنسان العادية من دائرة العبادة لله، ولكن ذلك يختلف من درجته ما بين عبادة محضة وعادة مشوبة بالعبادة، وعادة تتحول بالنية والقصد إلى عبادة، لأن المباحات يؤجر عليها بالنية والقصد الحسن، إذا صارت وسائل للمقاصد الواجبة، أو المندوبة، أو تكميلًا لشئ منها[2]، وقال النووي في شرحه لحديث: «**وفي بضع أحدكم صدقة**»[3]. وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنية الصادقة[4]، ومن ذلك يتضح: أن الدين كله داخل في العبادة والدين منهج الله، جاء ليسع الحياة كلها، وينظم جميع أمورها من أدب الأكل والشرب وقضاء الحاجة إلى بناء الدولة، وسياسة المال، وشئون المعاملات والعقوبات، وأصول العلاقات الدولية في السلم والحرب.

إن الشعائر التعبدية من صلاة وصوم، وزكاة لها أهميتها ومكانتها، ولكنها ليست العبادة كلها، بل هي جزء من العبادة التي يريدها الله تعالى.

إن مقتضى العبادة المطالب بها الإنسان أن يجعل المسلم أقواله وأفعاله وتصرفاته وسلوكه وعلاقاته مع الناس وفق المناهج والأوضاع التي جاءت بها الشريعة الإسلامية، يفعل ذلك طاعة لله واستسلامًا لأمره[5].

والدليل على المفهوم الشامل للعبادة من الكتاب والسنة وفعل الصحابة رضوان الله عليهم، فأما من القرآن الكريم فقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْـمُسْلِمِينَ**﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣].

ومن السنة قوله ﷺ: **إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة، وهو يحتسبها كانت له صدقة**[6].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٩ / ١١٦، ١١٧).
(٢) حقيقة البدعة وأحكامها للغامدي (١، ١٩).
(٣) مسلم (١، ٦٩٧).
(٤) شرح النووي ك (٧، ٩٢).
(٥) مقاصد المكلفين، د. عمر الأشقر صـ٤٦، ٤٧.
(٦) البخاري رقم ٥٥.

وقوله ﷺ: **دخلت امرأة النار في هرة، ربطتها فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت**[1].

وأما الاستدلال على عموم العبادة وشمولها لحياة الإنسان، عند الصحابة ففي قصة بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن، وفي آخره قال أبو موسى لمعاذ: فكيف تقرأ أنت يا معاذ؟ قال: أنام أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم، فأقرأ ما كتب الله لي، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي[2]، وفي كلام معاذ رضي الله عنه دليل أن المباحات يؤجر عليها بالقصد والنية.

خامسًا: أنواع العبادات:

إن أنواع العبادات كثيرة نذكر منها:

١ - **الدعاء**: لغة: الرغبة إلى الله وجاء في نصوص القرآن والسنة بمعنى العبادة قال تعالى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾ [غافر: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿**فَادْعُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ**﴾ [غافر: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقال تعالى: ﴿**ادْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۞ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦].

وقال تعالى: ﴿**فَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ**﴾ [الشعراء: ٢١٣].

ومن أسباب قبول الدعاء، المطعم الحلال، وألا يستبطئ الإجابة، ولا يدعو بإثم ولا قطيعة رحم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجزم في الدعاء، وحضور القلب

---

(١) البخاري رقم ٢٣١٨.
(٢) البخاري رقم ٤٣٤٢.

وسلامته من الغفلة والخشوع والإبتعاد عن المعاصي والإخلاص في الدعاء لله عز وجل[1].

ويمكن أن يقترن الدعاء بتوسل مشروع كالتوسل بأسماء الله الحسنى أو بصفة من صفاته العليا، أو أن يتوسل العبد إلى الله بأعماله الصالحة التي يرجى قبولها عند الله أو يطلب الدعاء ممن يظن صلاحهم أو بالتوسل بهم بشرط أنهم أحياء، وقد تحدث العلماء عن أنواع التوسل المشروعة منها:

أ - التوسل إلى الله بأسمائه الحسنى أو صفة من صفاته العليا:

والدليل على هذا النوع من أنواع التوسل قول الله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأعراف:١٨٠]. كأن يقول المسلم في دعائه: اللهم إني أسألك بأنك أنت الرحمن الرحيم، اللطيف الخبير أن تعافيني. أو يقول: أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن ترحمني، وتغفر لي[2].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا**﴾ [الأعراف:١٨٠]، اي ادعوا الله تعالى متوسلين إليه بأسمائه الحسنى ولا شك أن صفاته العليا عز وجل داخلة في هذا الطلب، لأن أسماء الله الحسنى صفات له خصت به تبارك وتعالى[3]، ومن الأدلة كذلك دعا سليمان عليه الصلاة والسلام حيث قال: ﴿**أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ**﴾

[النمل: ١٩].

ب - التوسل إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة التي يقوم بها العبد: كأن يتوسَّل إلى الله تعالى بالإيمان به وطاعته واتباع رسوله ﷺ ومحبَّته، ومن هذا النوع قول الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ [آل عمران: ١٩٣].

فيمكن للعبد أن يقول: اللهم بإيماني بك، أو محبتي لك، أو اتباعي لرسولك اغفر لي

(١) الذكر والدعاء والعلاج بالرقي من الكتاب والسنة، للقحطاني صـ١٢٢.
(٢) المصدر نفسه صـ٩٩.
(٣) المصدر نفسه صـ٩٩، انظر: منهج القرآن في الدعوة إلى الله صـ١٦٥، ١٦٦.

أو تقول: اللهم إني أسألك بمحبتي لمحمد ﷺ، وإيماني به أن تفرج عني، ومن ذلك أن يذكر الداعي عملًا صالحًا ذا بال فيه خوفه من الله سبحانه، وتقواه إياه، وإيثاره رضاه على كل شيء وطاعته له جل شأنه، ثم يتوسل به إلى الله في دعائه، ليكون أرجى لقبوله وإجابته[١].

ج - **التوسل إلى الله تعالى بدعاء الصالحين الأحياء**، بأن يطلب المسلم من أخيه الحيِّ الحاضر أن يدعو الله له، فهذا النوع من التوسل مشروع لثبوته عن بعض الصحابة مع النبي ﷺ حيث كان بعضهم يأتيه صلوات الله وسلامه عليه ويطلب منه الدعاء له أو لعموم المسلمين، ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أعرابيًا قام يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب فقال: يا رسول الله، هلك المال وجاع العيال، فادع الله لنا، فرفع يديه - وما نرى في السماء قزعة - فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال ثم لم ينزل عن المنبر حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته ﷺ[٢] إلى آخر الحديث، ومثله كذلك توسل الصحابة رضي الله عنهم بدعاء العباس رضي الله عنه وهو في صحيح البخاري من حديث أنس رضي الله عنه: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قُحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب، فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعمِّ نبينا فاسقنا، قال: فيسقون[٣].

والمراد بقوله: إنا نتوسل إليك بعمِّ نبِّينا، أي بدعائه فبهذه الأنواع الثلاثة من التوسل كلها مشروعة لدلالة نصوص الشرع عليها وأمّا ما سوى ذلك مما لا أصل له، ولا دليل على مشروعيته فينبغي على المسلم أن يجتنبه[٤].

٢- **النذر**: هو التزام قربة غير لازمة في أصل الشرع بلفظ يشعر بذلك، مثل أن يقول: لله عليَّ أن أصوم ثلاثة أيام[٥].

---

(١) الذكر والدعاء والعلاج بالرقي صـ١٠٠.
(٢) البخاري (١/ ٢٢٤)، مسلم(٢/ ٦١٣).
(٣) صحيح البخاري رقم ١٠١٠.
(٤) فقه الأدعية والأذكار صـ٣٤١.
(٥) اللباب في شرح العقيدة على ضوء السنة والكتاب صـ٥٤.

وحكم النذر الكراهة، بل حرمه بعض العلماء لعدم تحمل المسلم ما قد يعجز عن الوفاء به، ولكن إذا نذر المسلم وجب عليه الوفاء بهذا النذر وذلك ما لم يكن في معصية الله، فأصبح هذا النذر معلقًا في رقبته، ودينًا عليه حتى يوفيه[1].

- قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

- وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

- وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

وقال ﷺ: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**»[2].

ومن شروط النذر:

أ - أن يكون طاعة لله: لقوله ﷺ: **لا نذر في معصية الله، ولا في قطيعة رحم**[3].

ب - أن يكون مما يطيقه العبد: وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما النبي ﷺ يخطب إذ هو برجل قائم فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل، نذر أن يقوم فلا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم. فقال النبي ﷺ: **مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه**[4].

ج - أن يكون فيما يملك: قال ﷺ: **لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم**[5].

د- ألا يعتقد الناذر تأثير النذر في حصول الشيء وعدمه: قال رسول الله ﷺ: **إن النذر لا يقدم شيئًا ولا يؤخره وإنما يستخرج بالنذر من البخيل**[6].

---

(١) العقيدة الصافية صـ ٢٧٤.
(٢) البخاري (١١/ ٥٨١، ٥٨٥).
(٣) سنن أبي داوود، ك الإيمان وإسناده حسن.
(٤) البخاري، ك الإيمان والنذر، باب النذر فيما لا يملك.
(٥) مسلم، ك النذر، في وسط كتاب النذر.
(٦) البخاري، ك القدر، باب إلقاء العبد النذر إلى القدر.

وإذا كان النذر لله تعالى عبادة ونوعًا من أنواع التقرب إلى الله، فإن صرفه لغير الله تعالى شرك أكبر يخرج من الملة، ويوجب لصاحبه النار، لأن كل ما شأنه عبادة لا يجوز بحال من الأحوال أن يُصرف لغير الله تعالى، ومن المؤسف حقًّا أن نرى مثل هذه العبادات تصرف لغير الله تعالى[١]، وهذا جهل عظيم بالإسلام ولا علاج له إلا نشر العلم وإحياء الإيمان بالله عز وجل في القلوب.

٣- **الذبح**: ومعنى الذبح شرعًا: هو كل ما ذُبح هديًا أو عقيقة وغيرها لله تعالى، وبقصد التعبد لله والتقرب له[٢]، قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۞ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**﴾ [الكوثر: ١، ٢]، أي أخلص له صلاتك وذبحك[٣]، وقال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لَا شَرِيكَ لَهُ**﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، والنسك: الذبح[٤]، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله ﷺ، بأربع كلمات: لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من آوى محدثًا، ولعن الله من غيَّر منار الأرض[٥]. أما لعن الوالد والوالدة فهو من الكبائر وأما الذبح لغير الله، فالمراد به أن يذبح باسم غير الله تعالى، كمن ذبح للصنم، أو الصليب أو لموسى أو لعيسى عليه السلام، أو للكعبة ونحو ذلك، فكل هذا حرام، ولا تحل هذه الذبيحة سواء كان الذابح مسلمًا أو نصرانيًّا أو يهوديًّا[٦].

إن الذبح قربة وعبادة يُتقرب بها إلى الله تعالى ويتعبد بها ولذلك وجب صرفها لله تعالى.

٤- **التوكل**: هو الثقة بما عند الله واليأس عما في أيدي الناس، وقيل هو اعتماد القلب على الله وثقته به وأنه كفاية[٧]، والتوكل عبادة ويجب صرفها لله تعالى حتى يتم

---

(١) العقيدة الصافية صـ ٢٧٨.
(٢) المصدر نفسه صـ ٢٨٠.
(٣) المصدر نفسه صـ ٢٨١، نقلًا عن تفسير ابن كثير.
(٤) المصدر نفسه صـ ٢٨١.
(٥) مسلم (٣/ ١٥٦٧).
(٦) شرح النووي على صحيح مسلم (٤/ ٦٥٦).
(٧) اللباب صـ٥٧.

توحيد العبد ويخلو من شوائب الشرك وأدران الجاهلية والله سبحانه وتعالى يأمرنا بالتوكل عليه وحده لا غيره.

- **قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾** [الفرقان: ٥٨].

- **وقال تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾** [هود: ٥٦].

- **وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۞ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۞ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ۞ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾** [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠].

- **وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا﴾** [الأحزاب: ٤٨].

وقال رسول الله ﷺ: **لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا** (١).

٥- **الاستعانة:** وهي طلب العون من الله تعالى على سبيل التعبد لله، وهي من أنواع العبادة ولذلك يجب الاستعانة بالله وحده.

قال تعالى: **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾** [الفاتحة: ٥]. أي لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا بك، ونبرأ من كل معبود دونك ومن عابديه، ونبرأ من الحول والقوة إلا بك فلا حول لأحد عن معصيتك، ولا قوة على طاعتك إلا بتوفيقك ومعونتك (٢).

وقال تعالى: **﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾**

[الأنبياء: ١١٢].

وفي حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال:كنت خلف النبي ﷺ يومًا فقال: **يا غلام، إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم**

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم ٣١٠.
(٢) معارج القبول (٢/ ٤٥٢).

ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف[1].

٦- **الاستغاثة**: هي طلب الغوث، وهو إزالة الشدة، كالاستنصار، طلب النصرة، والاستغاثة.. طلب الغوث، والفرق بين الاستغاثة والدعاء أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب والدعاء أعمّ فيكون من المكروب وغيره[2]، فالاستغاثة نوع من العبادة يجب صرفها لله تعالى، فلا يستغات إلا بالله عز وجل، ولقد ذكر الله تعالى الاستغاثة في كتابه العزيز، فلم تصرف إلا له سبحانه، قال تعالى: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾ [الأنفال: ٩].

وقال تعالى: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**﴾ [النمل: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ**﴾ [الشورى: ٢٨].

وكان من دعاء النبي ﷺ: يا حيُّ يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام برحمتك أستغيث[3].

وعن ثابت بن الضحاك: أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يُؤذي المؤمنين فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله من هذا المنافق. فقال الرسول ﷺ: **أنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله**[4].

٧- **الخشية**: هي خضوع القلب والجوارح لله تعالى طاعة وخشوعًا وخوفًا من مقامه ووعيده، على سبيل التعبد لله تعالى[5].

- قال تعالى: ﴿**إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ**﴾ [آل عمران: ١٧٣].

- وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللهَ وَكَفَى**

(١) الترمذي (٧/ ٢١٩ـ ٢٢٠) صحيح الألباني (٦/ ٢٠٠).
(٢) اللباب صـ٥٧.
(٣) رواه الحاكم في مسنده صحيح الإسناد ولم يوافقه الذهبي.
(٤) رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح.
(٥) العقيدة الصافية صـ٣٠٩.

﴿بِاللهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧].

وقال ﷺ:.... **أما والله إني لأخشاكم وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**[(١)].

والخشية نوع من أنواع العبادة التي يجب ألّا تصرف إلا لله تعالى وصرفها لغير الله يُعدّ شركًا ينقض ويهدم الإيمان، وكلما زاد إيمان العبد بربه وخلص زادت خشيته منه[(٢)].

٨ - **الخوف:** هو اضطراب القلب وحركته من تذكر المَخوف[(٣)]، وهو أفضل مقامات الدين وأجلها وأجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله تعالى[(٤)].

- **قال تعالى:** ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

- **وقال تعالى:** ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ۞ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [ابراهيم: ١٣، ١٤].

- **وقال تعالى:** ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

- **وقال تعالى:** ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۞ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: **اتقوا النار ولو بشق تمرة**[(٥)]، فالنافع والضار هو الله، فلا خوف إلا منه وحده سبحانه وتعالى.

٩- **المحبة:** يعد خلق المحبة من أجل الأخلاق الإيمانية لأنها أصل كل فعل ومبدؤه،

---

(١) البخاري رقم ٥٠٦٣.
(٢) العقيدة الصافية صـ ٣١٢.
(٣) مدارج السالكين (١/ ٥١٢).
(٤) اللباب صـ ٦٥.
(٥) البخاري، ك الزكاة باب اتقوا النار ولو بشق تمرة.

فلا يكون الفعل إلا عن محبة وإرادة وكذلك الترك لا يكن إلا عنها، ولهذا كان رأس الإيمان الحب في الله والبغض في الله، وكان من أحب لله ومن أبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان[1].

قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ [التوبة: ٢٤].

فإن هذه الآية تحمل وعيدًا شديدًا على تقديم محبة أي شيء من أمور الدنيا على محبة الله تعالى ورسوله ﷺ، وأنه يجب إيثارها في المحبة على من سواهما وهذه المحبة تقتضي إيثار طاعتهما واتباع أمرهما، على إيثار من ذكر الله من الأقارب والأموال وغيرهما مما قد تريد النفس تقديمها[2]، وهذه المحبة يقتضيها الإيمان، فمن كان مؤمنًا أوجب عليه إيمانه أن يتحلى بها كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لله**﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقد بين القرآن الكريم علامات المحبة لله تعالى، فجعل من ذلك، اتباع نبيه ﷺ، والذلة للمؤمنين، والعزة على الكافرين، والجهاد في سبيله، وعدم الخوف من لوم لائم ومعاداة أعدائه، أما الاتباع لنبيه ﷺ فقد دل عليه قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ**﴾ [آل عمران: ٣١]، فإن هذه الآية تسمى آية المحبة[3]، فهذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ: **من عمل ليس عليه أمرنا فهو رد**[4].

وأما العلامات الأخرى فقد دل عليها قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**

(١) أخلاق النبي ﷺ في القرآن والسنة، د. أحمد الحداد (١/ ٢٠٤).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٢٠٥).
(٣) المصدر نفسه (١/ ٢٠٧).
(٤) البخاري، ك البيوع (٣/ ٩١)، مسلم رقم ١٧١٨.

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وأنواع العبادات كثيرة وإنما هذه على سبيل المثال وقد قسم العلماء أنواع العبادات التي لا يجوز أن يقصد بها غير الله إلى:

- **عبادات اعتقادية**: وهذه أساس العبادات كلها وهي أن يعتقد العبد أن الله هو الرب الواحد الأحد الذي له الخلق والأمر، وبيده النفع والضر، الذي لا شريك له، ولايشفع عنده أحد إلا بإذنه وأنه لا معبود بحق غيره.

- **عبادات قلبية**: والعبادات القلبية التي لا يجوز أن يقصد بها إلا الله وحده، وصرفها لغير الله شرك.. كثيرة، كالخوف والرجاء، والرغبة والرهبة والخشوع والخشية والحب والإنابة، والتوكل، والخضوع والخشوع، والاستغاثة....الخ

- **قولية**: كالنطق بكلمة التوحيد، إذ لا يكفي اعتقاد معناها بل لا بد من النطق بها، كالاستعاذة بالله، والاستعانة به، والدعاء له، وتسبيحه، وتمجيده، وتلاوة القرآن.

- **بدنية**: كالصلاة والصوم، والحج والذبح والنذر وغير ذلك.

- **مالية**: كالزكاة وأنواع الصدقات والكفارات، والأضحية والنفقة[1].

سادسًا: أفضل العبادات:

إن أفضل العبادات، العمل على مرضاة الرب في كل وقت وبما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته، فأفضل العبادات في وقت الجهاد، الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد من صلاة الليل وصيام النهار.

- والأفضل في وقت حضور الضيف مثلًا، القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب وكذلك في أداء حق الزوجة والأهل.

- والأفضل في أوقات السَّحر الاشتغال بالصلاة والقرآن، والدعاء والذكر والاستغفار.

(١) العقيدة في الله صـ ٢٣٦.

openkandil.com

- والأفضل في وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به، والأفضل في أوقات الأذان، ترك ما هو فيه من ورده والاشتغال بإجابة المؤذِّن.

- والأفضل في أوقات الصلوات الخمس: الجدُّ والنُّصح في إيقاعها على أكمل الوجوه والمبادرة إليها في أول الوقت والخروج إلى الجامع، وإن بعد كان أفضل.

- والأفضل في أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه أو البدن، أو المال: الاشتغال بمساعدته وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أوارِدِك وخلوتك.

- الأفضل في وقت قراءة القرآن: جمع القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله تعالى يُخاطِبك به، فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على تنفيذ أوامره، أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك.

- والأفضل في وقت الوقوف بعرفة، الاجتهاد في التضرع والدعاء والذكر، دون الصوم، المُضعف عن ذلك.

- والأفضل في أيام عشر ذي الحجة، الإكثار من التعبد لا سيَّما التكبير والتهليل والتحميد، فهو أفضل من الجهاد غير المتعيَّن.

- والأفضل في العشر الأخير من رمضان، لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف، دون التصدي لمخالطة الناس والاشتغال بهم، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم، وإقرائهم القرآن عند كثير من العلماء[1].

- والأفضل في وقت مرض أخيك المسلم أو موته: عيادته وحضور جنازته وتشييعه.

- والأفضل في وقت نزول النوازل، وأذاة الناس لك: أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم، دون الهرب منهم، فإن المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالطهم ولا يُؤذونه.

- والأفضل خلطتهم في الخير، فهي خير من اعتزالهم فيه، واعتزالهم في الشر، فهو

(١) تهذيب مدارج السالكين (١/ ١٠٣).

أفضل من خلطتهم فيه، فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قلله، فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم.

فالأفضل في كل وقت وحال، إيثار مرضاة الله في ذلك الوقت والحال والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه[1].

سابعًا: تحكيم الشريعة وارتباطها بالتوحيد:

١ - ربطها بتوحيد العبادة:

قال تعالى في قصة يوسف ودعوته إلى الله في السجن ﴿**مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [يوسف: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقال تعالى: ﴿**اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهُ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة: ٣١].

٢ - ربطها بتوحيد الربوبية: قال تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكُمُ الله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الأعراف: ٥٤].

٣ - ربطها بتوحيد الأسماء والصفات:

قال تعالى: ﴿**أَفَغَيْرَ الله أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾[الأنعام: ١١٤].

وقال تعالى: ﴿**ذَلِكُمْ حُكْمُ الله يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [الممتحنة: ١٠].

وقال تعالى: ﴿**وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ [الرعد: ٤١].

---

(١) تهذيب مدراج السالكين (١/ ١٠٣، ١٠٤).

وقال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لله يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

إن من أسماء ربنا سبحانه وتعالى التي عرّف بها نفسه إلى عباده وذكرها في كتابه، وعلى ألسنة رسله وأنبيائه «الحكيم» وقد ورد هذا الاسم الحكيم أربعًا وتسعين مرة في القرآن الكريم كما في قوله عز وجل: ﴿الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢]، ﴿العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]، ﴿الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٣٠]، ويقول تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ الله أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

فهذا دليل على أن اسمه أيضًا «الحكم».

وبمعناه: «الحاكم» وقد جاء في خمسة مواضع بصيغة الجمع منها ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]، ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ [هود: ٤٥]، ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

والحكيم: هو الذي يُحكم الأشياء ويتقنها ويضعها في موضعها كما قال سبحانه: ﴿صُنْعَ الله الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

ف «الحكيم» هو الذي يضع الشيء في موضعه بقدره، فلا يتقدم الحكم البالغة العظيمة، التي لا يأتي عليها الوصف، ولا يدركها الوَهَمْ، ومن معاني الحكمة: حكمته في خلقه، ومن ذلك ما تراه في جسد الإنسان وعقله وروحه من حكمته جل وعز، حيث خلق الإنسان في أحسن تقويم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]، ولو نظرت للإنسان في هيئته وصورته أو نظرت في قُدراته وإمكانياته أو نظرت في عقله وروحه، لوجدت الحكمة البالغة العظيمة[1].

ومن معاني حكمة الله تبارك وتعالى: الشرع الذي أنزله في كتابه على لسان رسوله، ولهذا وصف الله تعالى القرآن بأنه حكيم، كما في قوله: ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]، وقوله: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ [يس: ٢] فتشريعاته حكمة في مقاصدها وأسرارها ومآلاتها، فشريعته حكمة، وخلقه وقدره حكمة، حتى وإن عجزت بعض العقول في فهم أبعادها، فإن من الحوادث والشرائع ما لا يتبين مداه إلا بعد أجيال

(١) مع الله صـ١٨٤.

وعصور، ولا زال العلم البشري يكتشف الشيء بعد الشيء وليس يصحُّ أن يكون الجهل أو عدم الإدراك في وقت أو مكان أو بالنسبة لفرد أو جماعة سببًا في عدم القناعة بما جاء عن الله، لأنه أحكم الحاكمين، وأعلم العالمين، وخير الرازقين، وأحسن الخالقين، فالحكيم لا يدخل في تدبيره ولا شرعه خلل ولا زلل وأفعاله وأقواله تقع في مواضعها بحكمة وعدل، وسداد، فلا يفعل إلا السداد ولا يقول إلا الصواب[1].

والقرآن الحكيم فيه الحلول الصادقة والمناسبة والملائمة والأحكام الصحيحة التي بها قوام حياة الناس، وحَلُّ مشكلاتهم التي يواجهونها اليوم، سواء على صعيد الفكر أو الاقتصاد أو السياسة، أو المجتمع، وقد وضع الأُطُر العامة التي تهدي الناس إليها[2]، ولا شك أن أصول الهداية الكلية موجودة في القرآن الكريم، فإنه تضمن الأصول العامة التي تَصْلُح بها حياة الناس، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ [الجمعة: ٢].

وهذا دليل على أن الحكمة تعني السنة، فمن حكمته عز وجل أن يرسل الرسل الذين يختارهم من البشر، كما قال الله عز وجل: ﴿**لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة: ١٢٨].

فيختار سبحانه من الرسل أفضل البشر ممن لهم الكمال البشري في علومهم وعقولهم وأفهامهم ومداركهم وقدراتهم، ليتم بذلك البلاغ وتقوم الحجة على الناس ولهذا كان النبي ﷺ بالمنزلة العظيمة التي يعرفها كل من قرأ سيرته، وقد امتن الله سبحانه على الناس ببعثته لهذا الرسول ﷺ فقال: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فمن حكمة الله عز وجل أن بعث الرسل، وأنزل الكتب هداية للناس، وإقامة للحجة[3].

---

(١) مع الله صـ ١٨٦.

(٢) المصدر نفسه صـ١٨٦.

(٣) المصدر نفسه صـ ١٨٧.

ومن معاني حكمة الله عز وجل: أن يُلهم بعض العباد الحكمة كما قال تعالى: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**﴾ [البقرة: ٢٦٩]، فالله تعالى يؤتي الحكمة بعض عباده، فيعرفون كيف يحلون المشكلات، وكيف يخرجون من المُلمّات والأزمات وكيف يتعاملون مع المواقف الصعبة، وكيف يضعون الأمور في مواضعها، والعالم الإسلامي في أشد الحاجة لمجلس حكماء من الذين حنكتهم التجارب، لكي تستفيد الأمة من خبرتهم ومعرفتهم وتوقعاتهم، حتى لا يخبط المسلمون خبط عشواء ولا يقعوا ضحية المفاجآت والأزمات وهم لا يشعرون[١].

وأما «الحَكَم» فهو من له الحكم والسلطان والقدر، فلا يقع شيء إلا بإذنه وهو المدبر المتصرّف ﴿**كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ**﴾ [الرحمن: ٢٩].

«والحَكَم» أيضًا من له التشريع والتحليل والتحريم، فالحكم ما شرع، والدين ما أمر ونهى، لا معقب لحُكمه ولا رادّ لقضائه. فاجتمع (القدر) و(الشرع) ﴿**أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ**﴾ [الأعراف: ٥٤].

وحين يقول«أحكم الحاكمين» و«خير الحاكمين» فإن ذلك تأكيد على عدله ورحمته ووضعه الأشياء في مواضعها، فليس في قدره ظلم ولا تعسف، وليس في شرعه مُحاباة ولا تحيُّز بل هو حِفظ للحقوق، الحاكم والمحكوم، والرجل والمرأة والبرّ والفاجر، والمسلم والكافر، والقوي والضعيف، وفي كل الأحوال حَربًا وسلمًا وعلى كل أحد دون استثناء، ولذا وجب على كل مسلم تحكيم كتابه وسنة نبيه ﷺ في دقيق أموره وجلّها على الصعيد الفردي والجماعي والأسري والخاص والعام، والسياسة والاقتصاد، والاجتماع والإعلام، وكل شيء[٢].

٤- ربطها بالإيمان: قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا**﴾ [النساء: ٥٩].

---

(١) المصدر نفسه صـ ١٨٨.

(٢)مع الله صـ ١٨٧.

- وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

- وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

٥- **ربطها بالإسلام:** والإسلام أساسه الاستسلام لله والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك[1].

- قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

- وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

- وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

٦- **ربطها بالشهادتين:** أما شهادة أن لا إله إلا الله فقد سبق في أدلة توحيد العبادة ما يبين ذلك، وأما شهادة أن محمدًا رسول الله:

- فقال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

- وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

- وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ قُلْ أَطِيعُواْ اللهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢]

٧- طاعة غير الله والإعراض عنه كفر وشرك:

- قال تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦].

---

(١) الحكم بغير ما أنزل الله، د. عبد الرحمن المحمود صـ ٢٢- ٢٧.

- وقال تعالى: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

- وقال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

فهذه الأدلة جاءت كنماذج وإلا فهي كثيرة جدًّا تبين مدى ارتباط تحكيم الشريعة بالإيمان بالله عز وجل.

ثامنًا: الآثار الحسنة للحكم بما أنزل الله:

١- الاستخلاف والتمكين:

إذا أقام العباد دين الله تعالى، وخلص لله تحاكمهم في السر والعلانية فإن الله سبحانه يقويهم ويشدُّ من أزرهم حتى يستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ومكنّ لهم، وهي سنة إلهية ماضية نجدها في قصص شتى في كتاب الله تعالى.

أ - فهذا يوسف عليه السلام صار من أهل الاستخلاف والتمكين، بعد أن ابتلي فأبلى بلاء حسنًا، وظهر أنه كان من المحسنين، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

ب - وهذا موسى عليه السلام كان حريصًا على أن يُظهر لقومه هذه السنة الماضية، عندما خافوا بطش فرعون وقومه، فيقول لهم: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. أي: العاقبة الحسنة ستكون لكم بإرث الأرض شريطة أن تكونوا من المتقين، بإقامة شرع الله في الأرض[(١)].

ولما استبطؤوا العاقبة واستأخروا النصر، نبّههم موسى عليه السلام إلى سُنّة الاستخلاف ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

ثم أنجز الله عز وجل لهم ما وعد كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ

(١) تفسير المنار (٩/ ٨١).

﴿يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُواْ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ﴾

[الأعراف: ١٣٧].

وبعد وراثة الأرض، والاستخلاف فيها، منّ الله عليهم بالتمكين فقال سبحانه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۞ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾

[القصص: ٥- ٦].

ج- والله تعالى وعد المؤمنين من هذه الأمة بما وعد به المؤمنين من قبلهم، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

فإذا حقق الناس الإيمان، وتحاكموا إلى شريعة الرحمن فستأتيهم ثمرة ذلك، وأثره الباقي ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥]، فهي مقدمات ونتائج أعمال وآثار، فتحقيق التحاكم إلى الله، يتحقق به الاستخلاف وتحقيق الحكم به، يوصل إلى التمكين[(١)].

إن وقائع التاريخ الإسلامي، تصدق هذا الوعد الإلهي للأمة بالنصر والتمكين إذا أقامت شرعه، فليست هناك من جولات المسلمين انتصروا فيها على أعدائهم، وتقدّموا في شؤون دنياهم إلا وكان واقعهم شاهدًا على تمكين القرآن الكريم منهم اعتقادًا وعملًا[(٢)].

٢- الأمن والاستقرار: ضمن الله عز وجل لأهل الإيمان والعمل بشرعه وحكمه، أن يُحقق لهم الأمن الذي ينشدون إذا استقاموا على التوحيد ونبذوا الشرك بأنواعه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

(١) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي، د. عبد العزيز مصطفى (١/ ٦٧٣).
(٢) هجر القرآن الكريم أنواعه وأحكامه، د. محمود الدوسري صـ ٦٢٧.

ولا يتصور تحقيق أمة للإخلاص في العبودية، والخلوص من الشرك، وبالتالي الشعور بالأمن والاستقرار إلا بإقامة شرع الله كاملًا غير منقوص، وإلا فإن الأمم المنحرفة عن شرع الله يُحيط بها الخوف والقلق من جميع جوانبها لأن الأمن والأمان قد سُلب، قال تعالى: ﴿**أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۞ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۞ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ۞ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ**﴾ [الأعراف: ٩٧- ١٠٠].

في حين أن الله امتنَّ على المؤمنين بالأمن في مظنَّة الخوف لَمَّا انقادوا لحكم الله ورسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ وَلله جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾ [الفتح: ٤]، والسكينة هي الطمأنينة، والذين أنزل عليهم السكينة هم الصحابة رضي الله عنهم يوم الحديبية الذين استجابوا لله ولرسوله، وانقادوا لحكم الله ورسوله[(١)]، وإذا امتثل الناس شرع الله، وطبقوا أحكامه، ضمنوا الأمن التام في أموالهم وأعراضهم ودمائهم، فما من حد من الحدود، ولا شرعة من الشرائع إلا وتحفظ بسببها ضرورة من الضرورات الخمس، الدين، والنفس، والعقل، والعرض والمال[(٢)].

وقوانين البشر الوضعية لا تُحرز أمنًا ولا توفر استقرارًا، إذا ما قورنت بالتشريعات الإسلامية، فالدول قديمًا وحديثًا تنفق الأموال الطائلة وترصد الميزانيات الهائلة، لتأمين الداخل ومع ذلك لا يحصل للناس من الأمان عشر معشار ما يمكنهم تحصيله، لو أنهم أقاموا حدًا من حدود الله تعالى كحدِّ السرقة مثلًا[(٣)].

٣ - النصر والفتح: قال تعالى: ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلله عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

---

(١) هجر القرآن العظيم صـ٦٢٨.
(٢) المصدر نفسه صـ٦٢٨.
(٣) هجر القرآن الكريم صـ٦٢٩.

والمعنى: لينصرن الله عز وجل من ينصر دينه، ومن ينصر أولياءه وينتصر لشرعه في الأولين والآخرين، كما نصر المهاجرين والأنصار، على صناديد العرب، وأكاسرة العجم، وقياصرة الرُّوم، وأورثهم أرضهم وديارهم[1].

وسنة الله تعالى ماضية في نصر من ينصر دينه، كما قال تعالى: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ [محمد: ٧]، وقال تعالى: ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [الروم: ٤٧].

ولهذا فإن حال الأمة من النَّصر والعزَّة أو عدمها يعتبر مقياسًا دقيقًا وميزانًا للحكم على مقدار امتثالها – رُعاة ورعيَّة – لشريعة الله ظاهرًا وباطنًا.

فبالاستجابة للشريعة يُستجلب الفتح، ويُستنزل النصر، وتُستفتح الأرض[2].

٤ – **العز والشرف**: قال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ [الأنبياء: ١٠]. أي فيه شرفكم وصيتكم، وقال تعالى في آخر الآية: ﴿ **أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾ والاستفهام للتوبيخ والتقريع، والمعنى: أفلا تعقلون ما فضِّلتم به على غيركم[3]، فهذه الأمة لا تستمد الشرف والعزة إلا من استمساكها بدينها وتطبيقها لأحكام الشريعة في جميع نواحي الحياة، كما قال عمر ﷺ: «إنا كنا أذل قوم ما أعزنا الله إلا بالإسلام،فمهما نطلب العزّ بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله[4]، فهناك ارتباط وثيق بين حال الأمة الإسلامية عزًّا وذلًّا، مع موقفها من تطبيق الشريعة إقبالًا وإدبارًا، فما عزّت في يوم بغير دين الله وما ذلّت في يوم إلا بالانحراف عنه[5].

ومن أراد العزّة فليتعتز بطاعة الله تعالى، لأن مصدرها من الله تعالى فليطلبها من مصدرها، كما قال تعالى: ﴿**مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا**﴾ [فاطر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿**وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [المنافقون: ٨]، وهذه العزة

---

(١) روح المعاني للألوسي (١٧ / ١٦٤).
(٢) هجر القرآن العظيم صـ ٦٣٠.
(٣) زاد المسير لابن الجوزي (٥ / ٣٤١٩).
(٤) صحيح الترغيب والترهيب (٣/ ١٠٠) رقم ٢٨٩٣.
(٥) هجر القرآن العظيم صـ ٦٣١.

كما كانت للمؤمنين السابقين فهي كذلك للاحقين شريطة أن يقتفوا أثرهم في تعظيم حرمات الله وتطبيق شرعه والاعتزاز بدينه[1].

٥- بركة العيش ورغده: قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ**﴾ [الأعراف: ٩٦]، فالآية الكريمة تعد المؤمنين المستجيبين لشرع الله بالبركات متى ما حققوا معنى الإيمان والتقوى. والطريق إلى بركات السماء والأرض الاستجابة لله ورسوله ﷺ وإقامة شريعته حتى ينالوا هذا المطلب النفسي[2].

٦- الهداية والتثبيت: قال تعالى: ﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۞ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُواْ مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۞ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۞ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا**﴾ [النساء: ٦٥- ٦٦].

والأمر الذي وُعظوا به ووُعدوا الخير لأجله، هو تحكيم الشريعة والانقياد التام للرسول ﷺ فلو أنهم امتثلوا ما أمروا به، لثبت الله تعالى أقدامهم على الحق فلا يضطربون في أمر دينهم[3].

٧- الفلاح والفوز: قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾ [النور: ٥١، ٥٢].

فقد جمعت هذه الآية الكريمة أسباب الفوز في الدنيا والآخرة، وهي: طاعة الله ورسوله، وخشية الله وتقواه[4].

---

(١) هجر القرآن العظيم صـ ٦٣١.
(٢) المصدر نفسه صـ ٦٣٢.
(٣) فتح القدير للشوكاني (١/ ٧٣٢).
(٤) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (١٨/ ٢٢١).

٨- المغفرة وتكفير السيئات: قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الممتحنة: ١٢]. فقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يستغفر للمؤمنات إذا هنّ بايعنه على السمع والطاعة والرّضا بحكم الله ورسوله، وقد جاء الحديث على كون الله غفورًا رحيمًا للمبايعات إذا هن وفين ببيعتهن[(١)].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله قال وحوله عِصَابة من أصحابه: **بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف فمن وفّ منكم فأجره على الله ومن أصاب من ذلك شيئًا فعُوقب في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه.** فقد كان النبي ﷺ يبايع المؤمنين والمؤمنات على أمور هي في مضمونها إثبات لموقف التحاكم إلى الشريعة والخضوع لها وهذه البيعة كانت على الامتثال لسائر شرائع الإسلام، وما لم يذكر في هذه المبايعة كالصلاة، والزكاة، وسائر أركان الدين وشعائر الإسلام لوضوح أمره واشتهاره.

إن تحكيم الشريعة مظنة توبة التائبين في الدنيا، وقبول هذه التوبة في الآخرة بالمغفرة ومحو السيئات.

٩- مرافقة النبيين والصّدّيقين: قال تعالى: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقًا ۞ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيمًا**﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠]. سمّى الله تبارك وتعالى التحاكم إلى الرسول (طاعة) وجعل عاقبتها معية كريمة ومُقامًا كريمًا في صحبة كريمة في جوار الله الكريم. وحق لمن أقام هذا التحاكم على ما يريد الله تعالى، أن يرقى صُعُدًا مع هذه الصحبة المباركة في الفردوس الأعلى، لأن النبيين والصّدّيقين والشهداء والصالحين هم خير من أطاع الله تعالى ظاهرًا وباطنًا وأقام شريعته ووحّده، فمن حذا حذوهم حُشِر

(١) هجر القرآن العظيم صـ ٦٣٧.

معهم وصحبهم في الفردوس الأعلى من الجنة وهو طريق مفتوح لكلّ من اقتدى بهم ظاهرًا وباطنًا[1].

تاسعًا: الآثار السيئة للحكم بغير ما أنزل الله:

إن للحكم بغيرما أنزل الله آثارًا دنيوية وأخروية سيئة، تبدو على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، تصيب بشررها محاسنها وتشوِّه معالمها، وبذلك تتحول الحياة إلى فتنة في الدنيا والآخرة، فالله عز وجل حذّرنا من مخالفة الأوامر الشرعية في قوله تعالى: ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾ [النور:٦٣]، أي: فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول ﷺ باطنًا أو ظاهرًا «**أن تصيبهم فتنة**» أي: في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة«أو يُصيبهم عذاب أليم»، أي: في الدنيا بقتل، أو حدٍّ، أو حبس، أو نحو ذلك[2].

إن المجتمعات والشعوب التي تُسلِمُ قيادتها للحكام الذين يحكمونها بغير شريعة الله، تدفع ضريبة التخلي عن الحكم بما أنزل الله من أموالها وأعراضها وعقول أبنائها، وغير ذلك من ثرواتها الأدبية والمادّية، ذلك إلى جانب ما يجُّره التَّخلِّي عن الحكم بما أنزل الله من الجوع والخوف وضنك العيش، وغضب الله في الدنيا والآخرة[3].

وإليك بعض الآثار المترتبة على الحكم بما أنزل الله في الحياة الدنيا والآخرة:

١- قسوة القلب: قال تعالى: ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ**﴾ [المائدة:١٣]. فهم لَمَّا نقضوا ميثاق الله على السمع والطاعة، وساء تصرُّفهم في آيات الله وتأوّلوا كتاب الله على غير ما أنزله، وحملوه على غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل، ثم تركوا العمل به رغبة عنه، جعل الله قلوبهم قاسية، فلا يتعظون بموعظة لغلظتها وقساوتها، وهذا من أعظم العقوبات التي يُخذل بها القلب، ويُمنع الألطاف الربانية، ولا يزيده الهدى والخير إلا شرًّا[4]. وهكذا

(١) هجر القرآن العظيم صـ٦٣٦إلى ٦٣٩.
(٢) المصدر نفسه صـ٦٤٢.
(٣) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٧٠٥- ٧١٠).
(٤) هجر القرآن العظيم صـ٦٤٣.

الشأن في كلِّ من عدل عن شرع الله، مُحكِّمًا عقله وهواه، فجزاؤه أن يُطبع على قلبه، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:٢٣][(١)].

٢- الضلال عن الحق: قال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، ومعلوم أن نبي الله داود عليه السلام لا يحكم بغير الحقِّ ولا يتبع الهوى فيضله عن سبيل الله، ولكنَّ الله تعالى يأمر أنبياءه عليهم الصلاة والسلام، وينهاهم، ليُشرِّعوا لأممهم[(٢)].

وقد جاء التحذير الصريح في خطورة اتباع الأهواء وتقديمها على أحكام الله تعالى، وأنه ليس لمؤمن ولا مؤمنة أن يكون له اختيار عند حكم الله ورسوله، فما أمر الله هو المتبع، وما أراد النبي هو الحق، ومن خالفهما في شيء فقد ضلّ ضلالًا مبينًا، لأن الله هو المقصد والنبي هو الهادي الموصل، فمن ترك المقصِد، ولم يسمع قول الهادي، فهو ضال قطعًا[(٣)]، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦].

٣- الوقوع في النفاق: قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۞ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاؤُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ [النساء:٦١، ٦٢].

يبتلى بالنفاق من يضمرون الكراهية لشرع الله تعالى، حتى تصير قلوبهم مريضة بهذا النفاق، فيحاولون جهدهم أن يُخفوا نفاقهم، ظانِّين أن ذلك أمر ممكن، ولكن يأبى الله تعالى إلا أن يفضح المنافقين بفلتات ألسنتهم، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ ۞ وَلَوْ نَشَاء لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٢٩، ٣٠].

---

(١) المصدر نفسه صـ٦٤٣.

(٢) أضواء البيان (٧/ ٢٨).

(٣) التفسير الكبير (٢٥/ ١٨٣).

والأضغان: جمع ضِغن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد، والعداوة للإسلام وأهله، القائمين بنصره[1].

ولحن القول: ما يبدو من كلامهم الدّال على مقاصدهم بالتعريض أو التورية.

إن شأن المنافقين الدائم هو الاستهزاء بالشريعة، وحملتها، والإعراض عمّا أنزل الله تعالى والصد عن سبيله وقد كانوا يُشفقون من افتضاح نفاقهم بهذا الاستهزاء والإعراض حتى قال قائلهم: والله لوددت أنِّي قُدِّمت فجُلدت مائة ولا ينزل فينا شيء يفضحنا، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿**يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ اسْتَهْزِؤُواْ إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ۞ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِؤُونَ ۞ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ**﴾ [التوبة:٦٤-٦٦].

٤- الحرمان من التوبة: قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُواْ آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هِادُواْ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُواْ وَمَن يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ [المائدة:٤١] نزلت هذه الآيات الكريمات في المسارعين في الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله المقدِّمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله عز وجل: ﴿**مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ**﴾، أي: أظهروا الإيمان بألسنتهم وقلوبهم خراب خاوية منه، وهؤلاء المنافقون ﴿**وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا**﴾ أعداء الإسلام وأهله[2]، والجريمة التي اقترفها هؤلاء: هي انحرافهم عن شريعة الإسلام بتبعيضها تارة، وأخرى بتحريفها حسب أهوائهم وشهواتهم، ومصالحهم الدَّنيئة، فجاءت عقوبتهم متلائمة مع فظاعة جُرمهم الحرمان من التوبة ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ**﴾ أي: أن الله تعالى حتم عليهم ألا يتوبوا

(١) هجر القرآن العظيم صـ٦٤٥.
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ١٣٦)، هجر القرآن العظيم صـ٦٤٧.

من ضلالهم وكفرهم، فلم «يُرد الله أن يطهر- من دنس الكفر، ووسخ الشرك - قلوبهم بطهارة الإسلام ونظافة الإيمان فيتوبوا[1].

ودلت الآية الكريمة، على أن من كان مقصوده بالتحاكم إلى الحُكم الشرعي، اتّباع هواه، وأنه إن حُكِمَ له رضي وإن لم يُحكم له سخط، فإنَّ ذلك من عدم طهارة قلبه، كما أن من حاكم أو تحاكم إلى الشرع ورضي به وافق هواه أو خالفه، فإنه من طهارة القلب. ودلَّ على أن طهارة القلب سبب لكل خير، وهو أكبر داع إلى كل قول رشيد وعمل سديد[2]، كما دلت على الخزي لليهود والمنافقين، فبالإضافة لعدم طهارة قلوبهم فإن هناك خزيًا يلاحقهم ويحيط بهم من جميع الجهات، قال تعالى: ﴿**لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ**﴾ فخزي اليهود: فضيحتهم بظهور كذبهم في كتمان نصِّ الله تعالى، في إيجاب الرحم وأخذ الجزية منهم، وخزي المنافقين:هتك أستارهم باطلاع الرسول ﷺ على كذبهم وخوفهم من القتل[3].

٥- الصَّدُّ عن سبيل الله: قال تعالى: ﴿**اشْتَرَوْاْ بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاء مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ [التوبة: ٩]. فهذا حديث القرآن الكريم عن مشركي العرب الذين اعتاضوا عن اتّباع شرع الله، بما اهتموا به من أمور الدنيا الخسيسة صادين الناس عن الإسلام. وهناك صنفان متقابلان من أهل الكتاب، تحدث القرآن الكريم عنهما في قوله تعالى: ﴿**فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا ۞ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۞ لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [النساء:١٦٠-١٦٢].

ففريق توعدهم الله تعالى بالعذاب الأليم، لتعاطيهم الرِّشوة على الحكم فصدوا الناس عن الدِّين، إضافة إلى أكلهم الرِّبا وأموال الناس بالباطل، وفي مقابلهم فريق استحقوا الأجر العظيم، لإيمانهم بالشريعة المنزَّلة، ثم إيمانهم بالشريعة الحقة الناسخة،

(١) تفسير الطبري (٤/ ٢٠٩)، هجر القرآن صـ٦٤٧.
(٢) تفسير السعدي (١/ ٤٨٥).
(٣) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٧١٨).

فكانوا مثلًا يُقتدى بهم[1].

ولهذا الارتباط الوثيق بين الانحراف عن شرع الله والصَّدِّ عن دينه، استحق الصَّادون عن سبيله اللعنة والطرد من رحمته، قال تعالى: ﴿**أَن لَّعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ۞ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ**﴾ [الأعراف: ٤٤-٤٥].

٦- غياب الأمن وانتشار الفوضى: قال تعالى: ﴿**كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى ۞ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى**﴾ [العلق: ٦-٧]. والطغيان هو الصفة السائدة في الإنسان عندما يكون في معزل عن شرع الرحمن. ولو تأمّلنا وصف القرآن الكريم للإنسان بمعزل عن الإيمان، لوجدناه عجبًا؛ فهو ضعيف أمام المغريات، ونسيٌّ للإحسان وظلوم في الحقوق، وكفَّار للنعم ومجادل بالحق أو الباطل، وعجول متسرع، وناكر للفضل، وبخيل بما عنده وشديد في الخصومة، وشَرِه في جلب الخير لنفسه، وقنوط إذا عجز عن جلب هذا الخير، وهلع جزع إذا أصيب بضُرٍّ أو ألمَّ به شرُ، وهو ضان بالخير إذا تحصل عليه، ولا يمكن أن تواجه وتعالج وتهذب طباع هذا المخلوق إلا بشريعة من عند خالقه: ﴿**أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [الملك: ١٤]، وكيف نتخيل مجتمعنا يترك فيه الإنسان كالوحش الضاري، أو السَّبعُ الكاسر، دونما شريعة تطهِّر قلبه وجوارحه[2].

إن تحقيق الأمن في المجتمعات مرتبط بتطبيق شرع لله، فقد خص الله عز وجل من طبق شرعه، وحقق شريعته بالأمن، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٢]، والمتأمل في حال المجتمعات غير المحكومة بحكمة الشريعة وضبطها للأمور يرى كثرة القتل، والاغتصاب، واستباحة الأموال بكلِّ الطرق والأشكال، وانتشار الفواحش والزنا، والفجور والخَنا، والإدمان، واللصوصية، والجاسوسيّة والتحاسد والشح والبخل والجهل والظلم، وهذا كله من مظاهر غياب الأمن المرتبط بتحكيم شرع الله.

٧- انتشار العداوة والبغضاء: قال تعالى: ﴿**وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن**

(١) هجر القرآن العظيم صـ٦٤٩.
(٢)المصدر نفسه صـ٦٥٠.

﴿رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة:٦٤]. فاليهود لما خالفوا رسول الله ﷺ وكذَّبوه، ولم ينقادوا لشريعته، أخبر الله عز وجل أن قلوبهم لا تجتمع، بل العداوة واقعة بينهم دائمًا، لأنهم خالفوا شريعة الحق[١].

والنصارى بتركهم بعض ما ذُكّروا به من شريعتهم، ثم تكبرهم عن اتباع النبي ﷺ كانت عاقبتهم كعاقبة إخوانهم اليهود، قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

والأمة الإسلامية وعظها الله تعالى بالعداوة المُلقاة فيما بين طوائف اليهود والنصارى، حتى لا تقع فيما وقعوا فيه، فالرعية تُلقى بينهم العداوات إذا رغبت عن شرع الله، فمتى ترك الناس بعض ما أمرهم الله به، وقعت بينهم العداوة والبغضاء، وإذا تفرق القوم فسدوا وهلكوا وإذا اجتمعوا صلحوا وملكوا[٢].

وإذا خرج ولاة الأمور عن الحكم بين الناس بالكتاب والسنة، فقد حكموا بغير ما أنزل الله ووقع بأسهم بينهم وهذا من أعظم أسباب تغيير الدول[٣]. وقد تعوّذ النبي ﷺ من مغبة ترك الحكم بغير ما أنزل الله وعدّ ذلك من أعظم أسباب وقوع العداوة والبغضاء بين المسلمين[٤]، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال:أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تُدركوهن... وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيّروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم[٥].

٨- **الحرمان من النصر والتمكين:** قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وليس شيء أدعى للخذلان، وللحرمان من النصر والتمكين مثل هجر التحاكم إلى شريعة الله تعالى وعدم نصرها في الأرض، ويُعتبر ذلك إخلالًا بشرط النصر المنصوص

(١) هجر القرآن العظيم صـ٦٥٣.
(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٤٢١).
(٣) المصدر نفسه (٣٥/ ٣٨٨).
(٤) هجر القرآن العظيم صـ ٦٥٦.
(٥) صحيح سنن ابن ماجه للألباني (٣/ ٣١٦) رقم ٣٢٦٢.

عليه في آي كثيرة من كتاب الله، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ [محمد: ٧]، والمعنى: إن تنصروا دين الله وشريعته بالعمل بها، وتعظيمها ينصركم الله على أنفسكم وأعدائكم من شياطين الجنّ والإنس، فإن الجزاء من جنس العمل[(١)]. وقد نص القرآن الكريم على كيفية نصر الدين والشريعة في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾ [الحج: ٤١].

والآية الكريمة تدل على أن الذين لا يقيمون الصلاة ولا يؤتون الزكاة، ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ليس لهم وعد من الله بالنصر البتة... فالذين يرتكبون جميع المعاصي ممّن يتسمّون باسم المسلمين، ثم يقولون: إن الله سينصرنا مغرورون، لأنهم ليسوا من حزب الله الموعودين بنصره، كما لا يخفى معنى نصر المؤمنين لله، نصرهم لدينه ولكتابه، وسعيهم وجهادهم في أن تكون كلمته هي العليا، وأن تقام حدوده في أرضه، وتُمتثل أوامره وتجتنب نواهيه ويحكم في عباده بما أنزل على رسوله ﷺ[(٢)].

٩- هول العقاب الذي ينتظر المبدلين لشرعه: قال تعالى: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَآللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ۞ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ**﴾ [يونس: ٥٩، ٦٠]، ففي هذه الآيات الكريمة: أنكر الله تعالى على من حرّم ما أحلّ الله أو أحلّ ما حرّم الله، بمجرد الآراء والأهواء، التي لا مستند لها، ولا دليل عليها ثم توعدّهم على ذلك يوم القيامة فقال: ﴿**وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ أي: ما ظنهم أن يُصنع بهم يوم مرجعهم إلينا يوم القيامة[(٣)]؟ فهذا استفهام يراد منه تهويل وتفظيع العقاب الأليم، الذي ينتظر المفترين المتقولين على الله، المبدّلين لشرعه، ولذا نُكّر وأُبهم، فمصيرهم هو أسوأ المصير، وعقابهم هو أوخم العقاب[(٤)]. وصيغة

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ١٧٥)، هجر القرآن العظيم صـ ٦٥٦.
(٢) هجر القرآن العظيم صـ ٦٥٧.
(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٩٠)، هجر القرآن العظيم صـ ٦٥٨.
(٤) تفسير أبي السعود (٤/ ١٥٧)، هجر القرآن العظيم صـ ٦٥٨.

الغائب تشمل جنس الذين يفترون على الله الكذب، وتنتظمهم جميعًا، فما ظنهم يا تُرى؟ ما الذي يتصورون أن يكون في شأنهم يوم القيامة؟ وهو سؤال تذوب أمامه حتى الجبلات الصلدة الجاسية[1].

١٠ - الإهانة عند قبض الأرواح: قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۞ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ**﴾ [محمد: ٢٥ - ٢٨]. هذه الآيات الكريمات تهدد وتتوعد نوعًا من المنحرفين عما أنزل الله تعالى، وهم الذين يطيعون أعداء الله - كاليهود والنصارى - في بعض ما يأمرون به، والآيات تصفهم بالردة بسبب ذلك الفعل، وتتوعدهم بمصير مظلم، وعذاب مؤلم يبدأ معهم منذ اللحظات الأولى من مفارقة الدنيا[2]، ﴿**فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ**﴾ أي: كيف حالهم إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم وتعصّت الأرواح في أجسادهم، واستخرجتها الملائكة بالعنف والقهر والضرب[3].

وقال سبحانه في نوع آخر من المنحرفين عن شرعه المنزل: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَآئِكَةُ بَاسِطُواْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ نفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ**﴾ [الأنعام: ٩٣]، فالآية تحكي أحوال هؤلاء عند معاينة الموت والخروج من الدنيا ﴿**وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ**﴾ أي: شدائده وسكراته ﴿**وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ**﴾ بالعذاب ومطارق الحديد لقبض ارواحهم ﴿**أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ**﴾ أي: أخرجوا أرواحكم من أجسادكم أي هاتوا أرواحكم، والأمر للإهانة والإرهاق، إغلاظًا في قبض أرواحهم، ولا يتركون لهم راحة، ولا يعاملونهم بلين، وفيه إشارة إلى أنهم يجزعون فلا يلفظون أرواحهم، وهو على

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٨٠٢).

(٢) تفسير القاسمي (٦/ ٢٥٩)، تفسير الطبري (٢٦/ ٦٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٧/ ٣٢٣).

هذا الوجه وعيد بالآلام عند النزع جزاءً في الدنيا على شركهم[1]. ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: الهَوَان ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: تتعظمون وتأنفون عن قبول ما أنزله الله في آياته[2].

١١- الأكل من النار وغضب الجبار: قال العليم الخبير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ۞ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٤- ١٧٦].

بعد أن تحدثت الآيات عن بعض أحكام الشريعة مثل تحريم أكل الميتة والدم، ولحم الخنزير، وما أهل لغير الله به، توعدت من يكتمون أحكام الشريعة مقابل ثمن قليل يأكلونه، لأن كتمان الشريعة، يستلزم أنواعًا من الانحراف عنها[3]، فهؤلاء الذين يكتمون الحق المنزل، لقاء ثمن رخيص، إنما يأتون حرامًا يعذبهم الله عليه بنار جهنم يأكلونها في بطونهم الجشعة، فهي نارٌ على الحقيقة يأكلونها يوم القيامة، جزاء ما اقترفوا من أكل الرشوة على الدين[4]، والذي أعظم عليهم من عذاب النار، هو غضب الله عليهم، وإعراضه عنهم ﴿لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يطهِّرهم من الأخلاق الرَّذيلة، إذ ليس لهم أعمال تصلح للمدح والرِّضا والجزاء عليها، بل يعذبهم عذابًا أليمًا، لأنهم تركوا كتاب الله وأعرضوا عنه، وعن التحاكم إليه في الدنيا واختاروا الضلالة على الهدى والعذاب على المغفرة[5].

١٢- العذاب المهين: ذكر العزيز الحكيم جوانب من أحكام الشريعة في صدر سورة النساء، والمتمثلة في بيان أموال اليتامى، وأحكام الأنكحة، وأحوال المواريث والوصايا ثم ذكر بعد ذلك: الوعد والوعيد، ترغيبًا في الطاعة، وترهيبًا في المعصية فقال سبحانه:

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٢٢٣).
(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٤٣ـ ٤٤).
(٣) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٧٦٤).
(٤) تفسير القرطبي (٢/ ٢٣٩)، تفسير السعدي (١/ ١٣٤).
(٥) هجر القرآن العظيم صـ٦٦٢.

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾ أي هذه أحكام الله قد بينها لكم، لتعرفوها وتعملوا بها ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾ في متابعة حدوده، والعمل بها كما أمره الله تعالى: ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء:١٣] فهذا هو الوعد.

أما الوعيد: ﴿وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء:١٤] فكل من اعتدى على حدود الله تعالى مُكذبًا أو جاحدًا، أو مُبدِّلا أو مبغضًا فهو متوعَّد بهذا العذاب المهين، لكونه غيَّر ما حكم الله به وضادَّ في حُكمه، وهذا إنما يصدر عن عدم الرّضا بما قسم الله وحكم به، ولهذا يُجازيه بالإهانة في العذاب الأليم[1].

هذه هي أهم الآثار السيئة للحكم بغير ما أنزل الله قال الشاعر:

والله ما خوفي الذنوب فإنها ... لعلى طريق العفو والغفران

لكنّما أخشى انسلاخ القلب عن ... تحكيم هذا الوحي والقرآن

عاشرًا: حماية الرسول ﷺ لتوحيد الألوهية:

بيَّن رسول الله ﷺ هذا التوحيد أتم بيان ودعا إليه أعظم دعوة، وجلُّ القرآن الكريم نزل ليقرر هذا النوع من التوحيد ويدعو إليه، وجاهد رسول الله ﷺ في ذلك أعظم جهاد، وقام في حمايته وصيانة حماه حتى أتاه اليقين، بل إنه وهو في الرمق الأخير، وهو يعالج نزع الروح يبين لأمته أهمية هذا التوحيد، كما ربى أصحابه رضي الله عنهم على ذلك ليكونوا جنودًا وحماة لهذا التوحيد ويسلموا هذه الأمانة إلى من بعدهم صافية نقية، وقد كانوا كذلك رضي الله عنهم وأرضاهم، وفيما يلي بعض الأمثلة في حماية رسول الله لهذا النوع من التوحيد وبيانه والنهي عن كل ما يضاده من شرك، أو بدعة أو يكون وسيلة وذريعة إلى ذلك وإن لم يكن في نفسه شرًّا[2].

١- النهي عن الغلو والإطراء: حذر الرسول ﷺ أمته من الغلو ونهاهم عن ذلك وحذرهم منه ومن إطرائه أو تجاوز الحد في مدحه والثناء عليه حماية لجانب التوحيد قال

(١) المصدر نفسه صـ٦٦٤.

(٢) حماية الرسول حمى التوحيد صـ٢٨٧.

ﷺ: **إياكم والغلو فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو**[(١)]، وسد الذرائع الموصلة إليه، فنهى عن الإطراء وقال: **لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله**[(٢)].

٢- زيارة القبور والنهي عن اتخاذها مساجد: بين رسول الله ﷺ الغاية من زيارة القبور والحكمة التي من أجلها شرعت زيارتها فقد قال ﷺ: **فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت**[(٣)]، ووضح أيضًا أن من الحكمة في زيارة القبور الدعاء للميت والاستغفار له والترحم عليه[(٤)].

وبين رسول الله ﷺ كيفية الزيارة الشرعية للقبور بقوله وعمله وعلمها أصحابه، فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ فقال: **إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم**، قالت: قلت: كيف أقول لهم يا رسول الله؟ **قال: قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون**[(٥)].

كان رسول الله ﷺ قد نهى عن زيارة القبور أول الأمر سدًا للذريعة، ثم أذن فيها حين تمكن التوحيد في القلوب وبين الزيارة المشروعة وأمر بها ونهى عن كل ما يخالفها وحذر منها أشد التحذير[(٦)]. وكان من دعائه ﷺ قوله: **اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد**[(٧)]، وكان يحذر وينهي أمته عن اتخاذ قبره مسجدًا أو القبور مساجد، فعن أم سلمة رضي الله عنها وأم حبيبة رضي الله عنها ذكرتا لرسول الله كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: **أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدا، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله**[(٨)]، وكان رسول الله ﷺ

---

(١) مسند الإمام أحمد (١/ ٢١٥) حديث صحيح.
(٢) البخاري رقم ٣٤٤٥.
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (٧/ ٤٦).
(٤) حماية الرسول حمى التوحيد صـ ٢٩٥.
(٥) صحيح مسلم بشرح النووي (٧/ ٤٤).
(٦) حماية الرسول حمى التوحيد صـ ٢٩٦.
(٧) مسند أحمد (٢/ ٢٤٦).
(٨) البخاري مع الفتح (١/ ٥٣١).

يقول في مرض موته: **لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**. يحذر ما صنعوا ولولا ذلك لأبرز قبره[١]، وقد نهى رسول الله ﷺ أن يبنى على القبور أو يقعد عليها أو يصلى عليها[٢].

٣- الرقى والتمائم: قال رسول الله ﷺ: **إن الرقى والتمائم والتولة شرك**[٣]. والمقصود بالرقى غير المشروع منها وهي التي تسمى العزائم، التي يعتقدون فيها دفع الآفات والحفظ من المكروهات، وأما ما كان منها من الشرع والمأثور من رسول الله ﷺ فلا يدخل في ذلك، لما جاء في الحديث عن عوف بن مالك ﷺ قال: كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال: **اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا**[٤].

والرقى المشروعة هي التي توافرت فيها شروط ثلاثة:

- أن تكون بكلام الله، أو بأسمائه وصفاته.
- أن تكون باللسان العربي وبمعان معروفة.
- أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بتقدير الله عز وجل.

أما التمائم: فهي جمع تميمة وهي: ما يعلق عادة على الصبيان من خرز أو عظام أو جلد، أو نحو ذلك لاعتقاد دفع العين عنهم، وقد نهى عنها رسول الله ﷺ لما فيها من شرك، أو ذريعة إليه[٥].

وأما التولة: بكسر التاء وفتح الواو فهي ما يصنع بزعم أنه يحبب المرأة إلى زوجها، كما فسر ذلك ابن مسعود رضي الله عنه قالوا: يا أبا عبد الرحمن هذه الرقى والتمائم قد عرفناها، فما التولة؟ قال: شيء تضعه النساء يتحببن إلى أزواجهن[٦]، وكانت المرأة تجلب

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٥٣٢).
(٢) مسند أبي يعلي (٢/ ٦٦)، إسناده صحيح.
(٣) مسند أحمد (١/ ٣٨١)، صححه الحاكم على شرط الشيخين .
(٤) صحيح مسلم شرح النووي (١/ ١٨٧).
(٥) حماية الرسول صـ ٣١٦.
(٦) المصدر نفسه صـ ٣١٧.

به محبة زوجها وهو ضرب من السحر[1]. وهذه الأحاديث وغيرها التي تنهى عن هذه الأمور، التي فيها توكل على غير الله تعالى، واعتقاد جلب نفع، أو دفع ضرّ من دونه عز وجل، والله تعالى يقول: ﴿**وَإِن يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصَيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [يونس: ١٠٧].

فقد حرص رسول الله ﷺ على حماية التوحيد من مثل الأمور التي قد يتساهل فيها المرء مع خطورتها، فمن تعلق بالله وأنزل حوائجه به والتجأ إليه، وفوض أمره إليه، كفاه وقرب إليه كل بعيد، ويسّر له كل عسير، ومن تعلق بغيره أو سكن على رأيه وعقله ودوائه وتمائمه ونحو ذلك وكله الله إلى ذلك وخذله وهذا معروف بالنصوص والتجارب، قال تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق: ٣][2].

٤- الاستسقاء بالأنواء: ومعناه نسبة السقيا ونزول المطر إلى الأنواء. والأنواء: جمع نوء، وهي منازل القمر[3]. وقد حرص الرسول ﷺ أن يبين لأمته ما كان عليه أهل الجاهليه من شرك وضلال وأمرهم بالحذر من ذلك والبعد عنه، وأهم ذلك وأعظمه ما كان متعلقًا بأمور الاعتقاد ومن ذلك ما كان شائعًا في الجاهلية من نسبة نزول المطر إلى النجوم ومطالعها ومغاربها، وبين عليه الصلاة والسلام ما في ذلك من الشرك المنافي للتوحيد، كما جاء في حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **أربع من أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**[4].

وعن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس فقال: **هل تدرون ماذا قال ربكم؟** قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: **أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي، كافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا**

(١) المصدر نفسه صـ ٣١٧.
(٢) فتح المجيد صـ ١٠٥، عبد الرحمن بن حسن.
(٣) حماية الرسول حمى التوحيد صـ ٣٢٠.
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ٦٤٤).

فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب[1].

وهذا الحديث القدسي العظيم يخبر به رسول الله ﷺ عن ربه عز وجل أن من الناس من ينسب نعمه سبحانه وتعالى إلى غيره ويضيف أفعاله إلى سواه، وهو تعالى المنعم وحده الذي يجب أن تنسب إليه وحده جميع النعم، جل شأنه، فهو المتفرد بالرزق، المستحق أن تنسب إليه النعم ويفرد بالشكر عليها وحده لا شريك له[2].

وهذا البيان من رسول الله ﷺ حماية منه لجناب التوحيد حرصًا على أمته من الشرك وقد نزل القرآن الكريم على رسول الله وبين أن الله سبحانه ينزل الأمطار في آيات محكمات، قال تعالى: ﴿**اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۞ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ۞ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾

[الروم:٤٨-٥٠].

قال تعالى: ﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۞ هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾ [لقمان: ١٠، ١١].

وقد نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ يبين الحكمة من خلق النجوم، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ**﴾ [الملك:٥].

فهذه ثلاث حكم جعلها الله سبحانه وتعالى في خلق النجوم فهي زينة للسماء ورجوم ترجم بها الشياطين عند استراقهم السمع ووسيلة للاهتداء في ظلمات البر والبحر[3].

٥- السحر: رقى وعزائم وعقد يفعلها السحرة تؤثر في القلوب وفي الأبدان بمرض أو قتل أو تفريق بين المرء وزوجه، وغير ذلك، كما أخبر الله عن ذلك في كتابه الكريم،

---

(١) صحيح مسلم (١/ ٨٣، ٨٤).

(٢) حماية الرسول حمى التوحيد صـ٣٢٣.

(٣) حماية الرسول حمى التوحيد صـ٣٢٦.

فقال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة:١٠٢]، ويقع ضرره بمشيئة الله عز وجل ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ [البقرة:١٠٢].

والسحر حقيقة، وقد أمر الله بالاستعادة من أهله إذ يقول عز وجل: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۞ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۞ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۞ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۞ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق٥] والنفاثات: هن السواحر، وبين سبحانه أن السحر كفر بالله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ﴾ [البقرة:١٠٢].

قال أبو بكر ابن العربي: وما كفر سليمان قط ولا سحر ولكن الشياطين كفروا بسحرهم، وأنهم يعلمون الناس، ومعتقد السحر كافر، وقائله كافر، ومعلمه كافر، ويعلمون الناس ما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما كان الملكان يعلمان أحدًا حتى يقولا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة:١٠٢].

وقد ذم الله عز وجل السحر وأهله في كتابه الكريم، وبين بطلان عملهم، وأنهم لا خلاق لهم في الآخرة وجاء ذلك في آيات كثيرة من كتابه منها:

- قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٢].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَواْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٨١].

وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه:٦٩].

وقال رسول الله ﷺ: **اجتنبوا السبع الموبقات.** قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: **الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل مال اليتيم وأكل الربا**

والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات[1].

٦- **الكهانة:** تضافرت الآيات والأحاديث الصحيحة بالنهي عن إتيان الكهان وتصديقهم فيما يقولون، وتحريم ما يعطون من حلوان[2].

- قال تعالى: ﴿**هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ۝ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ**﴾ [الشعراء:٢٢١-٢٢٣].

- قال ﷺ: **من أتى عرافًا فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة.** [3]

- وعن ابن مسعود قال: نهى رسول الله عن ثمن الكلب، ومهر البغي وحلوان الكاهن. [4]

٧- **الشفاعة:** بين الرسول ﷺ الصراط المستقيم الذي يصلهم بربهم دون شفعاء ولا وسائط، وهو طريق التوحيد الخالص لله عز وجل وإفراده سبحانه بالعبادة دون ما سواه، أما الشفاعة المثبتة التي أثبتها القرآن الكريم وبينها رسول الله ﷺ فلها شرطان:

أ - الإذن من الله تعالى للشافع، قال تعالى: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ب - الرضا عن المشفوع له، قال تعالى: ﴿**وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى**﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وهذه الشفاعة خص الله تعالى بها أهل توحيده وعبادته تفضلًا منه وكرمًا، فهذه خاصة بهم لأنهم لم يتخذوا من دون الله وليًا ولا شفيعًا، وقد رضي الله قولهم وعملهم، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **من أسعد الناس بشفاعتك؟** فقال عليه الصلاة والسلام: **من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه**[5].

وأول الشافعين رسول الله ﷺ إمام الموحدين وخاتم المرسلين صلوات الله عليهم

---

(١) البخارى، ك الوصايا رقم ٢٧٦٦.
(٢) موقف الإسلام من السحر حياة سعيد (١/ ٢٣٧) حلوان الكاهن: ما يعطاه على كهانته.
(٣) مسلم (٧ / ٣٧).
(٤) البخاري ك الطب (٧ / ١٧٦).
(٥) البخاري مع الفتح (١١ / ٤١٨).

أجمعين، والذي اختصه الله تعالى وأكرمه بشفاعات عظيمة في ذلك اليوم تفضلًا وتكريمًا منه سبحانه لرسوله محمد ﷺ ورحمة بأمته عليه الصلاة والسلام، قال رسول الله ﷺ: **لكل نبي دعوة مستجابة، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئًا**[1].

فله عليه الصلاة والسلام الشفاعة العظمى يوم القيامة والتي يتخلى عنها أولو العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهي كما بين لأهل التوحيد من أمته، وهو الذي يشفع في دخول المؤمنين الجنة، وفي إخراج عصاة الموحدين من النار، والشفاعة إنما تكون وتنفع أهل التوحيد، أما غيرهم فهم كما قال عز وجل: ﴿**فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾[2] [المدثر: ٤٨].

- وقال تعالى: ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ شُفَعَاء قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ**﴾ [الزمر: ٤٤].

- وقال تعالى ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [يونس: ١٨].

***

(١) مسلم بشرح النووي (٣ / ٧٤).
(٢) حماية الرسول حمى التوحيد ص ٣٤٨.

obeikandl.com